مشكلة التموين

مقياس دقيق لقوة التضامن الاجتماعى

إذا فشل الإقناع وجب الإلزام

شهدت العاصمة — كما شهد غيرها من المدن — ما يشبه المجاعة بسبب نقص الخبز أو نفاده من السوق ، بعد ما صرح المسئولون مرات بأن فى مصر من الغلال ما يكفيها حتى قرابة الموسم الجديد ؛ فكان المعنى الصريح للأزمة بعد هذه التصريحات أنها أزمة مفتعلة لصالح فريق قليل من السكان ضد بقية السكان ... وهنا تبرز مسألة أخرى وهى مسألة التضامن الاجتماعى ومدى قوته بين المصريين ، بل مدى وجوده إن كان له وجود .

وهذا الوجه من المشكلة هو الذى يعنينا فى "مجلة الشؤون الاجتماعية" ذلك أن الحياة العامة لم تعد مستطاعة فى هـذا العصر إلا على أساس من التضامن الاجتماعى ؛ وإذا كان المجتمع حتى فى أدوار طفولته قد قام على هذا الأساس ، فإنه فى هذه الأيام بالذات لا يمكن أن يبقى لحظة سليما إذ وهن أساسه الأول ، أساس التضامن بين الطبقات وبين الأفراد .

ونحن فى أيام حرب لا تقتصر على المحاربين وحدهم بل تشمل العالم كله حتى الأمم التى لم تشتبك بعد فى القتال . ومصر فى حرب حتى قبل المعارك العالمية ... فى حرب دائمة مع أعدائها الدائمين : الفقر والمرض والجهل والآفات الاجتماعية الناشئة عنها . فهى فى كل وقت محتاجة إلى تعبئة قواها جميعا لمواجهة هؤلاء الأعداء الأقوياء والتضامن الاجتماعى أول هذه القوى بل محورها الوحيد .

ولكن مجرد وجود أزمة غذائيـة فى مصر البلد الزراعى الذى اشتهر فى تاريخه الطويل بأنه مخزن القمح ، دليل على أن التضامن ضعيف أو مفقود ، وأن روح الأثرة والفردية البغيضة هى التى تسيطر على تصرفات الأفراد والجماعات ، وهى التى تسود العلاقة بين الطبقات .

تبدو هذه الأثرة فى تصرفات كبار المنتجين والتجار الذين يخزنون طعام الشعب حتى ينفد من السوق وحتى يتحكموا فى الأسعار ، فيسمنوا من دماء الجياع ، ويعتنوا على حساب الفقراء ؛ وهذه وحشية فاضحة لا تلام حكومة من الحكومات حين تعمد فى محاربتها إلى أقسى الوسائل وأقطع العقوبات ؛ فالعقوبات القانونية بالغة ما بلغت من القسوة لن تصل إلى تجويع هؤلاء المتوحشين : الجريمة التى يرتكبونها هم كل يوم بل كل ساعة !

وإذا كانت الحكومة لم تلجأ حتى اليوم إلى عقوبات قاسية أو رادعة فإنها ستلجأ إليها مضطرة فى يوم من الأيام القريبة الآتية ، وقد أنذرتهم بأن السلطات المختصة " لن تفرق بعد اليوم بين كبير وصغير " ولهذا التعبير دلالته ، فلابد أن هناك بعض الكبراء قد فهموا أن مركزهم وثراءهم يعصمانهم من المؤاخذة ، وهذا مظهر من مظاهر فقدان التضامن لايحتاج الى برهان .

وتتجلى هـذه الروح كذلك فى تصرفات القادرين من المستهلكين الذين بلغ بهم حب ذواتهم والحرص على راحتهم أن يختزنوا الخبز والدقيق لعدة أيام أو أشهر خوفا من نفادهما ، بينما هناك آلاف لايجدون لقمة الوجبة الحاضرة ولو أن هؤلاء القادرين اكتفوا بالغذاء اليومى ما أحس الجميع بنفاد الخبز والدقيق .

ومن قبل فعلوا مثل هذا فى الملابس والأدوات وحتى فى الكماليات ولوازم الترف ، لأنهم يجدون فى أيديهم مالا ، ولايجدون فى قلوبهم إنسانية ، ويحسون فى أموالهم قوة ، ولايحسون فى نفوسهم رحمة ، ولأن التضامن الاجتماعى عندهم كلمة قد تدعو إلى السخرية فالمشكلة إذن منشؤها القدرة على الشراء التى يملكها الأغنياء دون الفقراء .

وهنا تبدو لنا حكمة الأمم التى أخذت نفسها بفرض ضرائب متدرجة تتعدم أو تخف عن كاهل بعض الطبقات ، وتثقل أو تفدح على ثروات الأثرياء ، ففى هذه الضرائب منحاة من التضخم فى ناحية والإفلاس فى ناحية ، وفيها تعديل لمقدار القدرة على الشراء بين هؤلاء وهؤلاء .

وليس هـذا حسب ، بل إن فيها موازنة بين كمية النقود التى تزداد فى أيام الحرب ، وبين كمية البضائع التى تتناقص فى الأسـواق . فالبضائع فى أيام الحرب تقل نظرا لانقطاع الواردات وتدمير الموجودات بفعل الغارات وسواها ، واستهلاك الكثير منها فى صنعات الحرب ، واشتغال المصانع والأيدى المنتجة بانتاج الأدوات الحربيـة ... فمن الحكمة ألا تظل النقود كثيرة فى أيدى الأثرياء لئلا يشتروا بها غاية ما يطلبون من البضائع المحدودة ، فلا يبقوا منها إلا القليل للطبقات الفقيرة التى لاتملك إلا القليل من قوة الشراء .

أذاع وزير المالية الانجليزية خطبة بالراديو على الشعب جاء فيها :

" إن حالة الحرب بطبيعتها تقتضى أن يزيد دخل الأفراد عن المبالغ اللازمة للاستهلاك ، لذلك أصبح لزاما على الحكومة البريطانية أن تشرف على الإيرادات سواء العامة أو الفردية .

" وأعتقد أنه فى حالة تخفيض الضرائب المفروضة الآن تصبح الحالة الغذائية لانجلترا من السوء بحيث قد لانجد رغيفا واحدا من الخبز ولا قطرة واحدة من اللبن .

" أحسب أنكم تدركون هذا كله ولكنكم تتساءلون لماذا لايجود الأغنياء بأموالهم ؟ فأجيبكم أنه لايوجد الآن فى انجلترا رجال واسعو الثروة ، لأن الضرائب التى فرضت عليهم

ثقيلة جدا . فقد فرض عليهم أن يدفعوا تسعة عشر شلنا وستة بنسات من كل جنيه واحد من دخلهم ، وفى حالات أخرى فرضت عليهم ضرائب أشد عنفا من ذلك .

" وأعتقد أنه لا يوجد الآن فى انجلترا رجل يزيد دخله الأسبوعى على عشرة جنيهات مهما تكن مهنته " .

وهكذا عالج الانجليز مشاكل الحرب كلها بهذه الضرائب التى تجعل الحد الأعلى للدخل الشهرى أربعين جنيها فى الشهر ؛ فمن جهة ضمنوا للخزانة العامة من الموارد ما يسمح لها أن تنهض بأعباء الحرب الباهظة ؛ ومن جهة ثانية أوجدوا الموازنة بين القدرة الشرائية وبين مقدار الموجودات فى الأسواق ، فحاربوا بهذا الإجراء الغلاء المصطنع والغلاء الطبيعى فى آن ؛ ومن جهة ثالثة فرضوا التضامن الاجتماعى فرضا برفع نسبة الضرائب تدريجا واستخدام جزء من الضرائب المجموعة فى تخفيف ويلات الغلاء عن الفقراء إذ أنهم ينفقون نحو ثمانين مليونا من الجنيهات فى العام لشراء الضروريات بأثمانها فى السوق وبيعها للطبقات الفقيرة بسعر أرخص يناسب مقدرتهم على الشراء .

وهذا فى انجلترا التى يضرب بها المثل فى الروح التعاونية وفى الخدمات الاجتماعية ينهض بها الأفراد والجماعات طواعية واختيارا ؛ فما بالك بمصر التى لم تنهض فيها بعد هذه الروح ، ولا يزال القانون وحده هو الذى يملك فيها تنظيم المعايير ؟

لقد أذاع معالى وزير التموين محاضرة عن التموين ، حاول فيها وضع الحقائق الواقعة بين أيدى المستمعين كما حاول أن يثير فى نفوسهم معانى التضامن الاجتماعى ، وهو يقول :

" وزارة التموين فى حاجة إلى معاونة صادقة من جميع طبقات الأمة ، وبغير هذه المعاونة لا تستطيع أن تؤدى رسالتها كاملة . ورسالة وزارة التموين هى قبل كل شىء تحرم مقاومة الغلاء المصطنع والإكثار من المواد الضرورية للاستهلاك حتى لا تشح ، ولا يرتفع ثمنها أكثر مما تحتمه الظروف القاهرة .

" والذين ينتفعون من الغلاء المصطنع هم فريق من أرباب المال أقوياء بمالهم وبخبرتهم ، فمقاومتهم تحتاج أشد الحاجة إلى المعونة الكاملة من المستهلكين .

" فالمنتجون للمواد الغذائية مثلا تحتم عليهم وطنيتهم وضمائرهم ألا يختزنوا من المواد أكثر من الضرورى لهم وأن يقبلوا طواعية ما تضطر إليه وزارة التموين من خلط القمح بغيره من المواد الغذائية حتى يستطاع اجتياز الأزمة الحالية إلى حين المحصول الجديد .

" وقد سمعت الكثيرين منهم يقولون : هذا قمحى . أنا الذى زرعته وأنتجته وأمسكه ، فكيف تمنعنى من استهلاكه ؟ وجوابى على هذا أن القمح الخالص الذى يكفى لتغذية عائلة ما يكفى لتغذية عائلتين عند خلطه ، والضمير الإنسانى يأبى على أى شخص أن يتمتع بقمح خالص بينما جاره يتضور جوعا . وأجرؤ على القول إنه لن يستطيع الاستمرار فى هذا ... " .

والجملة الأخيرة فى هذه المحاضرة هى التى تهمنا ، فهى مفتاح المشكلة فى اعتقادنا ، إذ يجب أن نيأس من وسائل الاقناع التى عالجنا بها هذه المسألة عاما وبعض عام . إننا فى حاجة — ولا شك — إلى قوة التشريع والإلزام بعد أن أفلست أو كادت وسائل الرجاء والاقناع .

* * *

وتطوى هذه الصفحة المظلمة لنفتح صفحة أخرى مضيئة ، صفحة المبرة الملكية التى أذاعها على الشعب دولة رئيس الحكومة فى هذه السطور :

" تجلى عطف جلالة الملك على شعبه الوفى الأمين فيما أمر به — حفظه الله — من وضع الكميات الموجودة من محصول الذرة فى مخازن مزارع الخاصة الملكية وتفاتيش الأوقاف الخصوصية تحت تصرف الحكومة لتوزيعها بالمجان على الفقراء والمحتاجين فى الجهات التى تعانى صعوبة من ناحية التموين .

" وإنى إذ أذيع نبأ هذه المبرة الكريمة لا يخالجنى شك فى تردد صداها لدى سراة مصر وأعيانها ، فليس أحب إلى النفس وأدنى إلى خدمة الوطن من المساهمة فى مثل هذا العمل ، وهم ولاريب مقبلون كعهد الأمة بهم على المعاونة فى تفريج تلك الأزمة وتخفيف آثارها " .

" وإنى ليسعدنى أن أتلقى من حضراتهم بيانا بما يتبرعون به من فائض غلتهم وموفور أرزاقهم " .

وكان المنتظر أن تهز هذه المبرة الكريمة وذلك لنداء المؤثر أوتار نفوس لمئات بل الألوف من أثرياء مصر وكبار ملاكها وأغنيائها ، ولكن التبرعات لاتزال قليلة ، قليلة جدا بالقياس إلى الثروت الضخمة والأهراء المملوءة والخزائن المتضخمة .

* * *

إن أهم ماينقصنا فى نهضتنا الحديثة أن نفهم روح الحضارة العصرية فهما صحيحا . فمنذ أيام اسماعيل قال كلمته المشهورة : إن بلادى قطعة من أوربا لا من افريقية ، وقد مضى أكثر من نصف قرن على هذه الكلمة ازدادت فيها مظاهر الرقى العصرى فى مصر وكثر أخذها بمظاهر المدنية الأوربية ولكنها بعد هذا الأمد الطويل لا تزال تجهل حقيقة هذه الحضارة ، ولا تزال بعيدة عن روح العصر الحديث . هذه الروح التى تجعل للتضامن الاجتماعى بين الأفراد والطبقات المقام الأول فى قياس حضارة الشعوب ، ولا تقتصر على المظاهر المادية من استخدام المخترعات الحديثة ، والتزام المودات والأزياء والأوضاع الظاهرة من النظم والتقاليد .

أصبحت مقاييس الرقى هى مقاومة الأمية ، ومقاومة الآفات الاجتماعية ، والترفيه عن الطبقات الفقيرة والضمانات الاجتماعية للأفراد والهيئات ، لا مجرد الأناقة والرشاقة ومظاهر البذخ والترف على المبانى والطرقات والأزياء والتشريعات .

فليست أمة متحضرة تلك التى تجمع بين قصر فخم ينطوى على خيالات مبعوثة من ألف ليلة وليلة وبين كوخ مبنى من الطين والقش والصفيح ينطوى على الفقر الأسود والحرمان الشنيع وليست أمة متحضرة تلك التى تجمع بين فتاة وارثة تستقدم ملابسها بالطيارة من وراء البحار وفتاة شبه عارية إلا من أسمال ؛ وليست أمة متحضرة تلك التى تجمع بين أهراء القمح فى مخازن الأثرياء وبين رغيف الخبز الجافة من الصبية والنساء والرجال .

لا . ليست هذه هى الحضارة وإنما هى الهمجية الغارقة فى مجاهل التاريخ والأدغال ، الهمجية التى يجب أن تحاربها الدولة بأقصى ما تستطيع من الوسائل والعقوبات .

لقد آن للأغلبية العظمى من الشعب أن تجد جزءا من العناية التى نالتها الأقلية على مدى الأجيال . وقد أخذت مشكلة التموين تحتل مكان الصدارة من اهتمام الحكومة والهيئات النيابية ، بعد أن نالت من أول الأمر رعاية مبيت البلاد . ومشكلة التموين هى مشكلة الأغلبية المحرومة لا مشكلة الأقلية المترفة ، ولن تحل إلا على أساس التضامن الاجتماعى الذى يأباه القادرون عليه ، فينبغى للدولة أن تفرضه عليهم بقوة الإلزام .

ولقد تضامن موظفو الدولة وفيهم العامل والمستخدم الصغير مع كبار الزراع فى رفع سعر القطن ربالين حين فرضت الدولة عليهم فى العام الماضى ضريبة إضافية لهذا الغرض. ولقد ملأ الملايين الدنيا إذ ذاك ضجيج عن انفلاح ومصلحة الفلاح وثروة الفلاح حتى فارو برفع السعر على حساب صغار الموظفين ، بل على حساب الشعب كله. فهاهم أولاء يستخدمون تلك الأموال التى أداها جميع بجيوبهم الخاصة ، فى تجويع الشعب باحتكارهم الغلال وعدم تعريضها للبيع استغناء بالأموال التى حصلوها من القطن ، وانتظارا لضغط الحاجة على الجياع فيشتروا بأفدح الأثمان .

بل هاهم أولاء يستخدمون تلك الأموال لتجويع الشعب حين يقدرون على الشراء قدرة عالية فيخزنون معظم المشتريات ، بينما الذين ساهموا معهم فى تمويل القطن يعجزون عن الشراء لنقص الأموال فى أيديهم وارتفاع الأسعار عن مستواهم .

وبينما يبلغ أكبر دخل شهرى فى انجلترا أربعين جنيها يوجد فى مصر من يبلغ دخلهم هذا الرقم فى اليوم بل الساعة فى بعض الأحيان . والحكومة تستصرخهم أن يجودوا بالقليل فلا يجودون ، والشعب يجوع تحت أبصارهم فلا يعطفون .

فلا يلومن أحد الدولة إذا هى اضطرت إلى الشدة وحاولت مرة استخدام القانون والإلزام بعد ما حاولت ألف مرة استخدام الرجاء والإقناع .